

بين الحوافر والمزاهر

خير الدين محمود قبلاوي*

لئن يُصَب القائدُ بهوى الحرب، وخوض المعارك، ويطرب لوقع السيوف، وقعقعة السلاح، ومواجهة المعتدين المترّبصين بأمته شرّاً، فذلك هوى عظيمٌ، وروح باسلة تظلُّ آمالُ النصر والحسم، وتحقيقُ وقفة العزّ في الحياة، ومفاخر التحرير والخلاص هي كلَّ تطلّعاته، ودربَ حياته، ودأبه وديدنه، وقد أرسل أبو الطيب المتنبّي ذلك المعنى مثلاً حين وصف سيف الدولة الحمداني بقوله:


* باحث من سورية.

العمل الفني: الفنان أحمد إلياس.

أنتَ طول الحياة للرُّوم غازٍ
فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفولُ[1]
قعدَ الناسُ كلُّهم عن مساعيـ
ـك، وقامتْ بها القنا والنصولُ

فقد منح أمير حلب الجهاد كلّ حياته، وقد أصاب الثعالبي في اليتيمة كبد الحقيقة حين وصفه بقوله: «قلّما ينشط لمجلس أنسٍ لاشتغاله عنه بتدبير الجيش، وملابسة الخطوب، وممارسة الحروب، وقد دعاه أبو فراس ليلة ليسمع غناء أبي عبد الله المنجم، وقد أحضره من أجله، وأرسل إليه شعراً يدعوه فيه، فأجابه سيف الدولة بهذه الكلمة الرائعة» التي تكتب بماء الذهب على جبين كلّ محبّ لأمّته : «أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر»[2].

وقد أقام سيف الدولة أسس إمارته في الموصل ثمّ في حلب سنة اثنتين وثلاثمئة للهجرة، معاصراً للخليفة العباسي المقتدر، وهو من أسرة نبيلة عريقة الأصول من أشهر القبائل العربية، وهي تغلب، ولعلّ فروسية أبنائها وشغفهم بالشعر والأدب نزعة سرتْ إليهم من جدّهم في الجاهلية الفارس والشاعر عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة الشهيرة التي طار صيتها حتى ملأ أسماع العرب.

وقد تبوّأ لدى الخلفاء العباسيين المقتدر والراضي والمتقي أعزّ مكانة لا ينزل فيها إلا القادة العظام، ونال علي بن حمدان بن حمدون العدويّ لقب : «سيف الدولة» من الخليفة المتقي حين أخمد نار الفتنة التي قام بها عصاة الدولة، بل بلغ من تكريمه لنصر الدولة العباسية أن أمر الخليفة بضرب اسمه واسم أخيه ناصر الدولة على الدنانير والدراهم.

ورعت سياسة سيف الدولة الحكيمة دولته في حلب وسائر ثغور الشام، وأنطاكية وحمص، فشبّت واستوت على سوقها، وكانت مثلاً صادقاً للخليفة العباسي، ولو أراد السلطة لاختار بقاعاً أخرى لدولته، لكنّه أراد أن يذود عن أمته، ويردّ هجمات البيزنطيين عن بلاد الشام خاصة والأمة الإسلامية عامة، ولا ينبغي أن يغيب عن رَوعنا تشوّف الروم للسيطرة على القدس، ولا شكّ أنّ السيطرة على شمال بلاد الشام طريق للوصول إليها، ولا أعتقد أنّ ذلك كان غائباً عن ذهن سيف الدولة، الحاضر والواعي لكلّ مخطّطات البيزنطيين.

ولا نستطيع أن نتمثل عصره وحروبه وجهاده المديد وشخصيته إلا إذا نظرنا بعين متمهّلة ومتأمّلة صفوف البيزنطيين الواقفة بكامل استعدادها على الثغور الشامية تنتظر الفرصة للانقضاض والنهش والتمزيق والسيطرة.



إن الشخصية العسكرية الفذّة التي كانت لسيف الدولة لا يســتطيع التاريخ مهما جار كاتبوه أن ينقصوا من أطرافه شيئاً من مزاياه الرائعة، ولو كان ســيفاً بيزنطيــاً أو رومانياً لنســج لـه مؤرخو تلك الأمم ســجلاً تاريخياً مكتوباً بأحرف مــن نور وافتخار، لأنّ أمثاله في البطولة، والشجاعة، والتضحية، وبسطة العلم، وصولة الفرسان كان وما زال نادراً.

وهــا هم المؤرّخــون البيزنطيــون الذين كتبوا تاريخ حروب القسطنطينية منذ القرن العاشر يرون سيف الدولة نفسه الدهر العربي الجاثم في جوارحهم، ويعدّه رجل سياســتهم المحاربَ الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدّسة عليهم، إنّ اسم سيف الدولة يكاد يكون مذكوراً في كلّ صفحة من صفحات تاريخهم الحربيّ، وكان اســمه أبداً موصوفاً بأنّه أقوى خصم، وأشرس بطل على الجيوش البيزنطية.

كتب المؤرخ «شــلمبرجه» في وصف سيف الدولة بقوله: «كأنّ سيف الدولة كان مخلوقاً ليسكن في قصور ألف ليلة وليلة، أو في خيام الضاربين في عرض الصحراء»[٣].

أقام ســيف الدولة ملكاً في شمال الشام يضــارع في نفسه وســلطانه ملك الخلافة،

وأقام الدســاكر والضــياع، وأحسن الحرث، وأغزر النســل، وكانت لـه حلــب دار الإمارة ومستقر السفرة، وفيها قصره في محل يسمى «الحلبة»، فــكان إذا عاد من غزوة أمر تحت الســماء الصــافية بإقامة المآدب في قصره، ونهــر قويق ذو الماء البــارد يجري في القصر في مجارٍ من المرمر المســنون، وكان الصــوت الفضــيّ الذي يحدثه المــاء ينشر البرودة في جو ذلك المكان، تحت رواق مفصــوص على الأعمدة العالية التي تشبه صواري السفينة، وكان يهوى أن يســمع وهو حالم الفكر، شارد اللــبّ في أجواز مجده، ومجد أمته، شــعراءه ينشــدون بين يديــه آيات مجده العســكريّ، ومفاخر بطولاته وانتصاراته.

وكان هذا البطل الذي نذر حياته لحرب البيزنطيين المعتدين فأراق الغزير من دمائهم، قد أسكن قصره فتاة بيزنطية حسناء، سباها في إحــدى حروبه للروم فتزوّجها، وكان يهيم بها مثل بطل مــن أبطال الروايات، ونظم في هيامه بها ارقّ شعره الغزليّ، ولكن تلك الفاتنة لم تستطع أن تمنعه من حرب قومها(٤)، وكأني به يتمثل في موقفه قول المتنبي :

وللخُود عندي ساعةً ثمّ بيننا
فلاة إلى غير اللقاء تُجابُ(٥)
تركنا لأطراف القنا كلّ شهوةٍ
فليس لنا إلا بهنّ لعابُ

أعزّ مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ
وخير جليسٍ في الزّمان كتابُ

لننطلق إلى ســاحة القتال، ونرى صــورة حيّــة لكتيبة عربية في تلك القرون، إننا أمام خيل عراب متراصّة النحور، وعليها دارعون بأيديهم الإعلام، وإنّ أعلامهم لمطرّزة ملوّنة مخطّطة، عليها وشــي كثير، وزركشــة فنية، وفوقها كتابــات منها «لا إله إلا اللّه»، بطراز كوفيّ، وهي أعلام عراض، وفي وسط الصورة فارس من صحبه الفرسان قد أكبّ على طبل تحت يديه يقرعه بحماســة وعنف، وقد رفع مقرعــة في الفضــاء، وأهــوى بمقرعة على الطبل، وعلى جانبيه فارســان، مع كلّ منهما بوق طويل ينفخ فيه جهد أنفاسه، وهم جميعاً في سحنات عربية عليها لحى، وفوق رؤوسهم عمائم مكورة، ولباسهم سراويلات.

وقد ألف المستشرق الألماني (كريمر) كتاباً عــن أدوات الحرب عند العرب، وصــف فيه الجيشــ العربي الإســلامي بقوله: «إن جند ســيف الدولة كانوا مغاويــر محبّين للحرب، فحينمــا يكون منهم ألف يدافعون عن مكان، فإنه يظــل من الإغراق في المســتحيل أخذه منهم، إنهــم ليقعدون على ظهور أفراســهم في المعمعة، وليس عليه لباس الســلاح التام، فهم لا يكتثرون بلبوس الجانبيات(٦)، ولكنّهم يضــعون علــى وجوههم مغافر مــن المعدن

المصفّح، سلاحهم الرماح الطوال، والتروس الكبيرة التي تغطي الجسد كلّه، وأقواسهم من خشب ليّن، واسع مابين الستين[٧].

أمّا جيوش البيزنطيين وخاصة جيش الإمبراطور «نيسيفور فوكاس» فكانت على غاية من التمرّس والدربة والفنّ العسكري، وكانت المعتقدات الدينية والشعور الوطني يدفعانه إلى أقصى الحميّة والحماسة، وإنّ الأباطرة البيزنطيين كانوا يجودون بالخيرات الجمّة على الجيش، ويقطعون الأجناد قطعاً من الأرض[٨].

ويصف المؤرخ «شلمبرجه» الجيش البيزنطي بقوله: كانت على رؤوسهم خوذ ثقال من الحديد، وعلى أطرافهم وجسومهم الزرد المضاعف المظاهر بينه، وكان يسترهم تروس كبيرة، وكانوا يحاربون وهم مولون هاربون، فكانوا يلقون بهذه التروس على أكتافهم فتقيهم النبال ساعة الهزيمة[٩].

إنّ وصف المؤرخين ذو قيمة تاريخية لا شكّ بها، لكن وصف المقاتلين يبقى أعلى قيمة وأصدق لهجة، خاصة إن كان هؤلاء المقاتلون شعراء شهدوا المواقع والحروب، ورأوا بأمّ أعينهم قراع السيوف، وسمعوا بآذانهم صليلها .

وإنّ هذه القصائد التي تسجّل كالعدسة المصوّرة المعارك لحظة بلحظة، بأسلوبها الفني الراقي، وسحر بيانها، وسمو صنعتها، ذات قيمة تاريخية وجغرافية عالية القَدر، بل تُعدّ وثائق لا تضاهى في خطورتها، لأنّها تكتب التاريخ السياسيّ والعسكريّ بصدق بعيد عن الإغراض.

وقد هيّأ الله لهذه المرحلة التاريخية الخطيرة من تاريخ أمتنا قائداً يطرب لوقع سنابك الخيول، وشاعراً يتطلّع للمجد، فكأنّ كلاً منهما كان مرصوداً للآخر، فوجد القائد سيف الدولة شاعره، ووجد الشاعر المتنبي أميره، فهذا أمير بسيفه وشجاعته، وذاك أمير بشعره ولسانه.

ولسنا مع الثعالبي حين يقول: «إن سيف الدولة هو الذي رفع من قدر المتنبي، ونفق شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر»[١٠].

إنّه ينظر إلى الشعراء مثل النظرة التي كان يراهم بها الخلفاء والأمراء، وطالما كان هؤلاء يعدون الشاعر من أداة المنادمة.

إنّ جميع الباحثين يعرفون أنّ شعر المتنبي حفل بأعذب الأنغام، وأبعد الآثار، فكان سجلاً بارعاً رائعاً لحماسة سيف الدولة وشجاعته، فقد نسج سيفياته الخالدة على هفوف الصحراء، ومزجها بحممات الخيل، ووقع سنابكها، ومزج هذه الصور بصليل

السلاح، وضجيج الفرسان، وعجيج الغبار، وفي مقدمة الجيش كان يبزغ سيف الدولة على جواده الأصيل، كأنّه فارس الأساطير، يهبّ في عالم الحروب، فيملأ أرجاء بيزنطة برهبة حربه، وسطوته وبأسه، فيراع من فيها.

وقد وصف «رونسيمان» ما كان يجري عند هجوم العرب على بلاد الروم في عصر سيف الدولة ومن قبله، وما يتخذ الروم من التعبئة فيقول:

«لقد حصّنت الحدود الإسلامية من جهة الروم تحصيناً قوياً، فإذا هجم المسلمون على ناحية، كان على الفرقة الرومية الحامية أن ترسل الخبر إلى كلّ الفرق التي بجوارها، وهؤلاء يشيعون الخبر فيمن يجاورهم من الفرق وأهل الحصون، ويتأهب الجميع للدفاع ريثما يأتيهم المدد من جيش القسطنطينية، وتندب كلّ ناحية فرقة من حرسها فيتألف جيش سريع التعبئة يرفد الفرقة التي هاجمها المسلمون»[11].

وكانت المعارك بين الروم والمسلمين سجالاً في عهد سيف الدولة يكتب بها الظفر حيناً للمسلمين، وحيناً للروم.

ولعلّ من أشدّ المعارك التي انتصر فيها سيف الدولة، وسجل وقائعها المتنبي هي معركة الحدث الحمراء، وقد وصفها بالحمراء لكثرة ما أريق فيها من دماء البيزنطيين، وقد كان الروم قد خربوا مكان هذه القلعة منذ سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة للهجرة، فجاءها سيف الدولة لإعادة بنائها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة للهجرة، فباشر بيده خطّ أساسها، فدهمه «برداس فوكاس» قائد الروم بعد يومين بجيش من البيزنطيين فيه خمسون ألفاً من الرجالة والفرسان، منهم الرومان والبلغار والروس، وكان معه ابنه «نيسيفور»، فحارب الحمدانيون هذه الجحافل من طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن مع سيف الدولة سوى خمسمئة من حرسه الخاص، فدبّت الحماسة في صدور رجاله لما رأوه يشقّ الصفوف إلى قائد الروم، وانهزم الروم، وخسروا ثلاثة آلاف قتيل، وأسر جمع من البطارقة والأراكنة، وقتل في هذه الموقعة ابن بنت برداس وصهره كوديس، وأسر قائد بلدي ليكاندوس وتزامندوس، ونجا ابنه نيسيفور حين اختفى في نفق، ثم فرّ هارباً تحت جنح الظلام[12].

ولم يترك سيف الدولة الحدث حتى أتمّ بناء سورها، ووضع فيه آخر لبنة بمشارفته في الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة للهجرة.

وقد أعجب المتنبي بهذه المعركة لتميّزها في شجاعة سيف الدولة الذي ضرب مثلاً

أعلى في البســالة والمواجهــة، ومثلاً آخر في التصــميم على البنــاء والارتقــاء بالعمران الحضاريّ، فســجّل هذا الحدث الحضاري باليــد التي تبني واليــد التي تدافع عن هذا البناء فقال:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
وموج المنايا حولها يتلاطم(١٣)
وكيف ترجّي الرومُ والروس هدمها
وذا الطعن آساس لها ودعائم

وإنّ من الشجاعة أن تظهر قوّة عدوّك من حيث العدد والعدة والعتاد، وقد فعل المتنبي ذلــك، فصــوّر الجيش البيزنطــي بجحافله وجنــوده التــي جُمعت من أمصــار مختلفة، وأسلحة متعددة، ودروع وتروس وخوذات حتى غلب معدن الحديد على معدن الطين والبشر في هذا الجيش المعتد بحضــوره العســكري، فقال وقد أحسن:

أتـوك يـجـرّون الحـديـد كـأنّهم
سـروا بجياد ما لهنّ قـوائم«١٤»
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجــوزاء منـه زمـازمُ
تجـمّـع فـيـه كـلّ لـسـن وأمّـة
فما تفهم الحُـدّاثَ إلا التراجمُ

فكيف اســتطاعت هذه الفئــة القليلة أن تهزم جيشــاً هذا وضــعه، وذاك عتاده، وأن تكســر قائداً مغروراً، ما فتــئ يهاجم الثغور الإســلامية من غــير أن يحيق به الخجل من كــثرة هزائمه وانكســاراته، وكان حرياً به أن يولّي ظهره ولا يولّي وجهه، ويؤرّخ المتنبي لهذه الهزيمة الماحقة وخســائرها الفادحة، ويعدّد من قتلاها المقاتلين الأشدّاء من أقرباء القائد المدحور فيقول:

أفي كلّ يـوم ذا الدمستقُ مقدمٌ
قفاه على الإقدام للوجه لائم(١٥)
وقـد فجعتـه بابنـه وابـن صهره
وبالصهر حملاتُ الأمير الغواشم

هل كانت هذه الحــروب مع البيزنطيين حروباً خاصة بين ملك بيزنطي وأمير عربي؟ بمعنى آخر هل كانت حروباً شخصية، لسيف الدولــة فيهــا مطامع في مناصــب أو أموال أو ثــروات يجمعهــا ليعلو بها؟! ويضــمّ إلى إمارته بــلاداً جديدة حتى يبني إمبراطوريته الحمدانية؟

لندع أبا الطيــب المتنبي وهو الأقرب إلى سيف الدولة وطموحاته وتطلعاته يجيب عن تساؤلاتنا بقوله فيخاطب سيف الدولة :

ولـسـتَ مـلـيـكـاً هــازمـاً لـنـظـيره
وكذلك التوحيد للشِّرك هازم(١٦)

كان هذا إعلاناً صريحاً لوصف الحروب الحمدانيــة بأنها ملحمة كبرى بين الإســلام كافة والروم كافة، وقــد دعا الروم لمثل هذا المعنــى منــذ ذلك اليــوم، فعمّمــوا دعوتهم

حتى بلغت بلاد أوروبة، وانتشرت فيها كلّها، وجعلت هذه الدعوة تقوى في بلاد الفرنجة حتى تحوّلت إلى حروب صليبية، يحمل رايتها ملوك الغرب، وتهاجم سواحل بلاد الشام ومصر بحملات حاقدة شرسة انتهت بهزيمتها وجلائها.

يقول المؤرخ «شلمبرجة»: «إنّ أبا الطيب كان مع سيف الدولة في هذه المعركة الرابحة، وكان يحارب الشاعر إلى جنب الأمير، فنظم لهذه المعركة قصيدة أنشدها سيف الدولة في راحة من المعركة عند المساء، وهذه قصيدة ذات شعر فيّاض وتفصيل يغري، وهي الأنشودة الحقيقية للأبطال المسلمين المتقين الظافرين على الصليبيين»(١٧).

على كلّ حال كان بناء الحدث الحمراء وتملّك العرب لحصنها شوكة في جنب الروم، لأنها باب الطريق إلى القسطنطينية، فجاء جيشهم إلى الإغارة عليها بعد عام من بنائها سنة أربع وأربعين وثلاثمئة للهجرة بقيادة ابن ملكهم «ليون»، فوصف المتنبي هذا الجيش وما دار عليها من الأقدار التي دارت قبلها على آباء الروم وأخوالهم فقال:

يجمع الرّومَ والصقالب والبُلْـ
ـغَرَ منها، وتجمع الآجالا(١٨)
نزلوا في مصارعٍ عرفوها
يندبون الأعمام والأخوالا

وبقي سيف الدولة وإمارته الصغيرة مساحةً، الكبيرة شجاعةً، الدرع الذائد عن الأمة، والرمح الطاعن صدور الأعداء، وبقي المتنبي المعجب الأكبر بهذا النسر المحلّق في سماء البطولة، لأنّه كان يحقّق لأمته العزّة والمنعة والظهور، ويعزّز للمتنبي الإحساس العميق بالعروبة، الذي كان يتطلع دائماً أن يكون للعرب دولتهم القوية المرهوبة الجانب التي يحسب لها الروم كلّ حساب، وقد ظلّت نفسه تموج بالثورة ومنازلة الأعداء، ومغازلته معاني الفروسية التي اجتمعت له كلّها في شخصية سيف الدولة، فكان يصف حروبه بشُعل من الحماسة المتوقّدة(١٩)، لانّ الأمر يعنيه، وانتصارات الحمدانيين تدنيه من تحقيق حلمه الكبير، وانظر إلى هذا الإعجاب الباهر بشخصية سيف الدولة في قوله:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنّك في جفن الردى وهو نائم(٢٠)
تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمةً
ووجهك وضّاح وثغرك باسم
تجاوزتَ مقدار الشجاعة والنُّهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

إنّ المتنبي أكبر شاعر عربيّ أعطى الحروب العربية البيزنطية من شعره نصيباً كبيراً، ولئن كانت الملحمة العربية الرومية قد بدأت بشعر أبي تمام ثمّ بصاحبه البحتري

فلقد تلقّفها المتنبي فأنشد أروع فصولها، إنّه حشــدَ لها كلّ ما في وسعه من فنّ، ومن بيان ســاحر، ومعان سامية في أنقى لفظ وأصدق أســلوب، وكان ســيف الدولة قائداً وشاعراً وجد في المتنبــي بغيته فأمدّه بالتكريم ليمدّه بخلود الحمــد وبقاء الذكر، فهــل من قائد يكمل الملحمة العربية في مواجهة الصهيونية، لتتمّ فصــول العزة والنصر، ويســتل سلاحه غير هيّاب، ويسطّر أروع الملاحم في مواجهة الكيان الصهيوني الهجين الذي يهدّد وجودنا، ويســتعمر قدسنا؟ وســيجد عندها كلّ أبناء أمته شــعراءَ، يخلّدون انتصــاراته وبطولاته ووقفاته.

الهوامـش

١- ديوان أبي الطيّب المتنبيّ: ١٥٧/٣
٢- يتيمة الدهر: الثعالبي: ٩٣/١
٣- شعر الحرب: المحاسني: ٢٤٧
٤- يتيمة الدهر: الثعالبي: ٢٥/١
٥- ديوان أبي الطيّب المتنبيّ :١٩٢/١
٦- الجانبيــات: صـفـائح مـن الـدروع على شـكل الفخذين تشـدّ فوق السـاق والرجـل من كلّ جانب.
٧- شعر الحرب: المحاسني: ٢٥٣
٨- المرجع نفسه: ٢٥٤
٩- المرجع نفسه: ٢٥٨
١٠- يتيمة الدهر: الثعالبي: ٩٠/١
١١- شعر الحرب: المحاسني: ٢٦٣
١٢- المرجع نفسه: ٢٧٧
١٣- ديوان أبي الطيّب المتنبيّ: ٣٨١/٣
١٤- المصدر نفسه: ٢٨٤/٣
١٥- المصدر نفسه: ٢٨٩/٣
١٦- المصدر نفسه: ٢٩١/٣
١٧- شعر الحرب: المحاسني: ٢٨٠
١٨- ديوان أبي الطيّب المتنبيّ: ١٣٧/٣
١٩- الفن ومذاهبه: ضيف: ٢٤٧
٢٠- ديوان أبي الطيّب المتنبيّ: ٣٨٦/٣

المراجع والمصادر

١- ديـوان أبـي الطيّب المتنبـيّ: شرح أبـي البقاء العكبري، تحقيق: مصـطفى السـقا، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٧١م.
٢- يتيمـة الدهـر: أبو منصـور الثعالبـي، طبعة إسماعيل الصاوي بمصر، ١٩٣٤م.
٣- الفـنّ ومذاهبـه في الشـعر العربـي: د.شـوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
٤- شـعر الحرب في أدب العرب: د.زكي المحاسني، دار المعارف بمصر، ١٩٦١م
٥- حليـة الفرسـان: علـي بـن هذيل الأندلسـي، تحقيق: لويس ميرسيه، باريس، ١٩٢٢م.

☆ ☆ ☆